

التاريخ السياسي الإسلامي لدولة ملاقا

✍ عبد الغني يعقوب الفطاني *

مقدمة

اتجهت البرتغال بعد سقوط الأندلس سنة 1492م إلى الشرق بدوافع استعمارية للسيطرة على بعض البلدان والممالك ذات الثراء والغنية بالمواد الأولية لأغراض اقتصادية ودينية. يقول بعض المؤرخين العرب إن كلمة ملاقا Malacca مشتقة من الملاقاة، أو الملتقى، لأن طرق التجارة العالمية كانت تلتقي عند هذا المرفأ البحري من شبه جزيرة الملايو، وذلك منذ القرن العاشر وحتى القرن الخامس عشر الميلادي. بينما يقول الملايويون: إن كلمة "ملاقا" منسوبة إلى شجرة محلية تعرف باسم "شجرة ملاك" Pokok Melaka. أما الهنود فيقولون: إن "ملاقا" مقتبسة من ملاياقا (Malayaka) وهي منطقة معروفة بجنوب الهند. وأرى أن أسباب تسمية ملاقا بهذا الاسم العربي وملاك بالملايوية راجع إلى أهميتها التجارية العالمية ولموقعها الفريد الذي يصل سومطرة بإندونيسيا وملاقا بماليزيا،¹ وفيها يجتمع التجار الوافدون فيلتقون في هذه

* دكتوراه في التاريخ الإسلامي من كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر؛ أستاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

¹ 'Abd Hamid Bashah Raja Campa & Dis Narti Jemal dalam Patani besar, Pustaka Reka, 1994, p. 30-32.

وانظر أيضاً: د. إبراهيم شعوط، المجتمع العربي والإسلامي (مصر: الأزهر، 1967م) ص 12-14.

المنطقة فسميت بـ "ملاقا" والتي كانت مملكة ملايوية إسلامية واسعة تحكم العديد من الولايات بشبه جزيرة الملايو (1377-1511م) والمناطق الناطقة بالملايوية بسومطرة اليوم² مثل جامبي Jambi. كامفر Kampar. واندراغيري Indragiri، سياك Siak. أرو Aru وفاسي Pasai، وهي ليست ملاقا اليوم المحصورة بين نخري سميلان Negri Sembilan وجوهور Johor (ماليزيا).

وكان يستقبل ميناء ملاقا التجاري وفوداً من جاوا Jawa وسيام Siam (تايلاند حالياً) والهند وبلاد فارس والصين وشبه الجزيرة العربية لترويج بضاعتهم التجارية المتنوعة مثل الحرير والورق والأواني الفخارية من الصين، والمنسوجات والملابس القطنية من الهند، والتوابل والمواد الخفيفة من جاوا، والسجاجيد والأفرشة الملكية من بلاد فارس، والتمور والعطور والصمغ من شبه الجزيرة العربية، والأرز والفيلة البيضاء من سيام³ وكان لها نفوذ ديني وسياسي وعسكري قبل أن تكون ملاقا دولة ملايوية إسلامية، لأنها كانت هي المهيمنة على شبه جزيرة الملايو⁴، بعد سقوط مملكتي سري ويجايا Seri Vejaya في المدة بين القرنين 14-15م، وماجا فاهيت Maja pahit 1293-1478م.

هذا وقد حكم مملكة سري ويجايا ملوك مثل الملك وارمان War man، والملك مولا وارمان Mula War man، وقورنا وارمان Purna War man، ومن "الراجات" ماجا فاهيت كين أروك Ken Arek (مؤسس الأمبرطوية)، وهايام وروك Hayam Warouk 1350-1389م. ووحدت المملكتان المتعاقبتان جزر أرخبيل الملايو تحت حكم واحد. وما غابت شمس الإمبراطوريتين وحضارتهما البوذية ثم الهندوسية إلا بعد دخول الإسلام إلى جزر الأرخبيل⁵.

² جزيرة في الأقيانوس الهندي (إندونيسيا) في ممرتها فادانج Padang ومن مدنها فلمبانج Palambang وميدان Medan وتشتهر بإنتاج البن والأرز والبهار وتسمى أيضاً: بجزيرة أفواك الصين، راجع جورج فضل حوراني، العرب والملاح في المحيط الهندي، ترجمة د. يعقوب بكر (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1958م) ص 23.

³ A. Hasjmy, Sejarah Meseik dan berkembanganya di Islam di Udenesia, Catatan Pertama, 1981, pp. 37-38.

⁴ قهر الدين يونس، هذه هي إندونيسيا (مصر: الشبكشي، 1947م)، ص 49.

⁵ مملكة سري ويجايا بوذية الديانة في عدتها بالمبانج Palimbang سومطرة، وماجا فاهيت هندوسية، وعاصمتها جاوا. وكاتتا تبسطنان جناحيهما الديني والسياسي على شبه جزيرة الملايو: سنغافورة، وإندونيسيا، والفلبين، وبروناي دار السلام، وصباح، وسراواك، وفطاني، وسيلان، ومدغشقر.

للتشريف. 20 وكلمة (شاه) كلمة فارسية ومعناها الملك وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن ألقاب ملوك سلاطين الملايو متأثرة بألقاب ملوك الفرس المسلمين ولا تزال هذه الألقاب متداولة إلى يومنا هذا في بلاط سلاطين بلاد الملايو وأضرب مثلاً على ذلك: السلطان محمود المكثفي بالله شاه، السلطان أبو بكر رعاية الله شاه، السلطان إدريس المستعين بالله شاه. ولا يجوز أن يلقب أي سلطان من سلاطين المسلمين بالشاهنشاه (ملك الملوك) لورود النهي عن ذلك في الأحاديث النبوية.

تروى كتب التاريخ الملايوية هذه الحادثة النورانية بروايات مختلفة غير أن مضمونها واحد.. وفيها معان سامية تعكس الفطرة السليمة التي جُبل عليها هذا الملك (الراجا) الذي خاطبه رسول الله البشير في منامه. ومعروف أن رؤيا الرسول صلوات الله عليه - إذا وقعت - حق. أراد الله عز وجل أن يهدي الملك وينقذه من ظلمات الأديان إلى نور الإيمان ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: 56).

ومنذ سنة 1400م وبعد إسلام الملك تبعته الأسرة المالكة والوزراء وعوام الناس، والناس على دين ملوكهم، يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه عالم الإسلام (ولم يجد الإسلام عقبة في طريقة إلى شبه جزيرة ملاقا 21 (الملايو) وأخذت دولة ملاقا الإسلامية الوليدة تتجه إلى تطبيق الأحكام الإسلامية في البلاد، مع محاولة التوفيق بين أحكام الشريعة والعادات والتقاليد الملايوية التي لا تناقض الإسلام 22.

ثم أمر السلطان محمد شاه 1377-1414م ببناء المساجد في كل أنحاء البلاد لأهميتها في الإسلام كما هو معروف، وأمر بإقامة المراكز الدينية العلمية (الفندوق Pondok) 23 ليشع منها نور التوحيد والإيمان وأمر بلغة جديدة رسمية للدولة. 24 بعد أن كانت السنسكريتية القديمة البالية، وهذه اللغة هي اللغة الملايوية

20 محمد عبد الرؤوف، الملايو وصف وانطباعات، مرجع سابق، ص 82، وانظر أيضاً: Sejarah Umat Islam، مرجع سابق، ص 443.

21 حسين مؤنس، عالم الإسلام (مصر: دار المعارف، 1973م)، ص 76.

22 محمد عبد الرؤوف، الملايو وصف وانطباعات، مرجع سابق، ص 40.

23 معاهد دينية تقليدية نظامها حلقات يدرس الطلاب في الفندوق كتب التراث الديني وحفظ القرآن، والكتابة الأبجدية للأطفال.

24 اللغة الملايوية القديمة (تكتب بالأبجدية العربية بزيادة خمس حروف هي: غ، چ، پ، ف، ك، ويكون عدد حرف الكتابة الجاوية Tulisan Juwi ثلاثة وثلاثون حرفاً. هذه الإضافات الحرفية، كانت إما تأثراً بالكتابة الفارسية أو الأوردية، أو من إبداع مفكري الملايو وقتئذ، وهذا هو الأقرب.

المكتوبة بالأبجدية القرآنية التي أصبحت اللغة الرسمية للدولة. وقد كتب العلماء والمفكرون المؤلفات العلمية باللغة الملايوية. وأصبحت أيضاً لغة المعاهدات التجارية الدولية. وهذه الكتابة الجميلة هي توأم للعربية وبها تتم اليوم دراسة التراث الملايوي القديم.

ومن المراسيم الجديدة التي استحدثت للدولة الحديثة التكوين حضور سلاطين البلاد ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك إلى المساجد الجامعة، احتفالاً بهذه المناسبة "ليلة القدر" التي هي خير من ألف شهر، يقول الدكتور كريم أمر الله في هذا الصدد في كتابه *Sejarah Umat Islam*: "إن الملك كان يذهب إلى المسجد لأداء صلاة التراويح مع الشعب في السابع والعشرين من شهر رمضان في موكب يتقدمه فيل عليه السجادة الملكية، وأما العمامة الملكية فيحملها الوزير في مساء اليوم التالي إلى المسجد في موكب آخر حيث يلبسها الملك لأنها شعار الإسلام والملك إمام الدين وحاميه".²⁵ يقول الأستاذ عبد الوهاب حاج كيا: "وعندما يحين موعد العيدين (الفطر والأضحى) يجتمع الشعب في القصر الملكي ويدخل عليهم الملك ثم يذهبون جميعاً في موكب إلى المسجد لأداء صلاة العيدين.²⁶ وهذا يدلّ دلالة واضحة على تجذّر الإسلام في أرض ملاقا وأن أحكامه قد أخذت طريقها إلى التطبيق، ووافقت أغلب العادات الملايوية القوانين الشرعية وإن كانت بعض العادات البالية باقية إلى اليوم. مثل عادات الزواج واختان ويوم الحصاد.²⁷ واتخاذ ملوك الملايو اللون الأصفر.²⁸

من المستحسن أن نقسم أدوار ملاقا التاريخية إلى ثلاثة عهود زمنية:

1 - العهد الأول: وهو عهد البناء والتأسيس وقد بدأ في عهد السلطان محمد شاه 1414-1377م ثم السلطان ميغات إسكندر شاه 1414-1424م، ثم السلطان سري مها راج شاه 1424-1444م، وفي هذه الفترة الزمنية كثر أعداء الدولة الوليدة، مملكة سيام من الشمال، وما جافا هيت من الشرق، وعلى الرغم من ذلك واجهت هذه

25 عبد الوهاب حاج كيا، مسلمو ماليزيا بين الماضي والحاضر (ليبيا: كلية الدعوة، 1993م)، ص48. وانظر:

كريم أمر الله، تاريخ أمة الإسلام (*Sejarah Umat Islam*)، ص447.

26 المرجع نفسه، ص448-449.

27 محمد عبد الرؤوف، الملايو وصف وانطباعات، مرجع السابق، ص46.

28 من عادات ملوك الملايو (حتى اليوم) أن تكون سجادة الصلاة لونها أصفر، والسيارة صفراء، والعلم الذي يرغرف فوق القصر أصفر، والمظلة لونها أصفر، ولا شك أن هذه العادة متأثرة بالعادات والتقاليد الملايوية القديمة قبل اعتناقهم الإسلام، وهذه العادة مازالت إلى اليوم.

الدولة الملايوية الوليدة كل الصعوبات فخرجت من محتتها ظافرة مظفرة.

2- العهد الثاني: ويمكن أن نسميه عهد التقدم والازدهار. ويبدأ من عهد

السلطان سري فارا ميسوارا ديوا شاه 1444-1456م، وقد خلف هذا السلطان ولدين هما الراجا إبراهيم، والراجا قاسم حصل بينهما خلاف أدى إلى قتل الراجا إبراهيم.²⁹ وهذه أول حادثة دموية حصلت في بلاط دولة ملاقا، وقد هزت هذه الحادثة الأليمة ملاقا كلها. ولكن مع حسن سياسة الراجا قاسم السلطان مظفر (1446-1459م)،³⁰ عاد الوضع إلى مساره الصحيح. وفي عهده تقدمت البلاد وأخذت بالنهوض في جميع المجالات الزراعية، والتجارية، والفنية، والعلمية، والقوة العسكرية لعلاقة الدولة بإمبرطورية الصين التي كانت تمتد ملاقا بالتكنولوجيا العسكرية، وبعد وفاة السلطان مظفر تولى السلطة من بعده السلطان منصور شاه 1459-1477م، وفي عهده بدأت الدولة باستكمال تطبيق شريعة الله في أرضه.³¹ وفي عهد هذا السلطان استطاعت ملاقا أن تجمع الأحكام الشرعية والعادات الملايوية في كتاب يعرف بقانون ملاقا "Undang-undang Melayu". وتضمن هذا الكتاب القوانين الشرعية التي كانت تطبق في أرجاء دولة ملاقا الواسعة وكان من بين تلك القوانين: إقامة الحد على الزانية والزاني، وقطع يد السارق والسارقة، وقتل المرتد بحمد السيف، وطبقت أيضا قوانين تتعلق بالأحوال الشخصية مثل: قانون الزواج، والمعاملات مثل: قانون التجارة والضمان والإعارة وقانون البحر،³² وأحكام القصاص والأحوال الشخصية والمعاملات كلها على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شيوع هذا المذهب في ملاقا وجزر أرخبيل الملايو³³ وقد اقتسبت

²⁹ Jessy (Jogindor Singh Jessy): Sejarah Tanah Melayu K.Lumpur: Dewan Bahasa dan Pustaka, 1980, pp. 30-31.

³⁰ مظفر (The Winner) لأنه استطاع أن يقضى على أنصار أخيه الراجا إبراهيم ويقود البلاد إلى بر الأمان، وفي حينه أرادت سيام من الشمال غزو ملاقا ولكن السلطان مظفر وشعبه واجهوا الغزو بكل بسالة واستماتوا في ذلك.

³¹ كريم أمر الله، تاريخ أمة الإسلام، مرجع سابق، ص 440.

³² يقصد بقانون البحر هنا أن كل سفينة تجارية تخرج للصيد، فلا بد أن يكون هناك إمام يوم الصيادين. وإذا نظرنا إلى هذا القانون فإن معنى ذلك أن ملاقا كانت تهتم إهتماما كبيرا في تأدية الواجب الأول نحو الخالق سبحانه وتعالى، ألا وهي الصلوات الخمس.

³³ Muhammad Yusof Hashim: Islam dalm Sejarah Perundangan Negri Melaka dan Islam di Malaysia, K.Lumpur: Per Satuan Sejarah malaysia, 1980, pp. 4-5.

معظم السلطنات الملايوية (مثل قدح Kedah ، وباهانج Pahang ، وبراك Perak ، وسلانجور Selangor ، وكلنتان Kelantan ، في تقنين أحكامها الشرعية من قانون ملاقا. 34 وعندما احتلت القوات المسيحية هذه البلاد كان من جملة اهتماماتها إلغاء الأحكام الإسلامية واستبدالها بقوانين وضعية، واستمر الحال على ذلك في ماليزيا - كما في باقي بلاد العالم الإسلامي - إلى يومنا هذا.

أطلق المؤرخون الملايويون على عهدي السلطانين (مظفر ومنصور) عهد النهضة والتقدم لأن في عهديهما كثر الوافدون من علماء وصوفيين وتجار ودعاة مسلمين إلى ميناء ملاقا، الجميع يعملون من أجل نهضة الدولة ودفعها إلى الرقي والرخاء. وكان من سياسة السلطان منصور شاه توثيق العلاقات التجارية والعسكرية مع الصين، فكانت تصدر إليها الأرز والأخشاب والتوابل والمواد الحريفة، وتستورد منها الحرير والورق والأواني الفخارية والتكنولوجيا العسكرية البحرية، ولقد زار ملاقا فيما بين عامي 1405-1407م وفد عسكري صيني برئاسة أمير البحر المسلم محمد شن هو Cheng Ho وتعجب الوفد بتمسك شعب ملاقا بالإسلام وبقوتها البحرية،³⁵ ويرجع الفضل في تقدم ملاقا ونهضتها إلى حنكة وسياسة رئيس الوزراء تون بيراك Tun Perak ، وفي عام 1416م قام السلطان منصور شاه والوفد المرافق له بزيارة رسمية إلى الصين فتزوج بامرأة صينية تدعى الأميرة هانج لي فو Hang li Po ويطلق على هذه المصاهرة (الزواج السياسي) وقد عاد برفقته عدد من البنائين المسلمين الصينيين الذين بنوا مساجد ملاقا على فن معماري صيني.³⁶ وما زال بعض هذه المساجد باقيا إلى اليوم، ومن ناحية أخرى زار السلطان منصور شاه بلاط إمبراطورية ماجا فاهيت (Maja Pahit) بجاوا وتزوج بابنته باتارا (Batara)، وكان السلطان منصور ذا حنكة سياسية فكان يعمل ألف حساب للأعداء المحيطين بدولته ولا سيما مملكة سيام "تايلاند" التي كانت تدعي أن ملاقا جزء من مملكتها، وما جافاهيت الهندوسية التي

34 المصدر السابق، ص5.

35 Sejarah Umat Islam، مرجع سابق، ص448. وللعلم "آن شن هو: عاش في عهد دولة مينج Ming 1368-1644م وقد قام بسبع رحلات بحرية زار خلالها 35 دولة أسوية وإفريقية. وهو أول من وصل إلى جنوب خط الاستواء على سواحل إفريقيا الشرقية". انظر مجلة المسلمون في الصين (بكين، 1982م) ص112.

36 مسلمو ماليزيا بين الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص48. وانظر أيضا: تاريخ أمة الإسلام، ص452.

كانت تضرم نار الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين، وبفضل من الله ومنتَه استطاعت ملاقا الإسلامية أن تحافظ على السياسة السلمية بين الديانتين الهندوسية والبوذية.

3 - العهد الثالث: وبعد وفاة السلطان منصور شاه اعتلى عرش البلاد السلطان علاء الدين رعاية شاه (1477-1488م)، وفي عهده بدأ نجمها في الأفول، وحتى لا نظلم السلطان رعاية شاه، فإنه ينبغي القول إنه على الرغم من ضعف سلطاته الداخلية إلا أنه استطاع أن ينفذ بعض الأحكام الشرعية، فكان يخرج لتفقد رعيته، وصادف إحدى الليالي جماعة من السراق فقبض عليهم وأقام الحدّ عليهم بعد أن أدينوا واعترفوا أمام القاضي الشرعي.³⁷

وهنا نقف وقفة اعتزاز وفخر لأن عصور السلاطين: مظفر، ومنصور، وعلاء الدين كانت من أهم العصور التاريخية أو عبارة أخرى كانت عصوراً ذهبية حقاً.³⁸ وذلك راجع إلى عدة أسباب:

- 1 - تطبيق الأحكام الشرعية من قبل الدولة.
- 2 - الدعوة الإسلامية التي كانت تشرف عليها سلطات الدولة وولاية أمور البلاد، فوصلت دعوة الحق إلى الفيلبين (عذراء الملايو) وبروني دار السلام، وأقاليم بورنيو الشمالية والجنوبية)³⁹ وتوسعت العلاقة الدينية والتجارية بين سلطنتي ملاقا وفطاني.⁴⁰
- 3 - الانضباط الجمركي حيث كان يشرف عليه مسؤول يعرف باسم: شاه بندر Shah Bandar.
- 4 - الاستقرار والأمن الداخلي والخارجي وهو الأساس لبناء أية حضارة من حضارات الأمم قديماً وحديثاً.
- 5 - اعتماد منطقة "ملاقا" سوقاً مركزياً وعالمياً، فقد فتحت ملاقا أبوابها للتجارة العالمية والاستثمارات الأجنبية.

³⁷ تاريخ أمة الإسلام، مرجع سابق، ص426، وانظر أيضاً محمد يوسف هاشم، Islam dalam Sejarah Perundangan Negri Melaka، ص15.

³⁸ محمود شاكر، اتحاد ماليزيا (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1392هـ) ص10-12. وانظر أيضاً: ماليزيا بين الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص50-51.

³⁹ يقصد ببورنيو الشمالية (صباح وسراواك وبروني دار السلام) فكانت خاضعة لبريطانيا، وأما بورنيو الجنوبية (كاليمنتان) فكانت تسيطر عليها الشركة الهولندية الشرقية V.O.C.

⁴⁰ ملكة ملايوية إسلامية احتلتها سيام "تايلاند" سنة 1786م.

ماذا يا ترى كان يريد فاسكو دي جاما من هذه الرحلة البحرية؟ مما لا شك أن هذا القبطان البرتغالي قد أرسله بلاط دولته للبحث عن مصدر التوابل والمواد الخفيفة واكتشاف الطريق البحري المؤدي إلى شبه جزيرة الملايو منبع التوابل وأم البهارات. وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي وصل القبطان فرديناند ماجلان 1480-1521م إلى الشرق بالدوران حول أمريكا والاتجاه نحو الغرب فاكشف قارة أمريكا مصادفة،⁴⁸ كما تحدث ماركو بولو الإيطالي Marcopolo عن مشاهداته وانطباعاته عن دول أرخبيل الملايو حيث زا ردولة فاسي Pasai بسومطرة في عهد حاكمها السلطان الملك الظاهر بهيان شاه⁴⁹ 1297-1326م وقد مرَّ هذا الرحالة الإيطالي على ملاقا وهو في طريقه إلى الصين، ودوّن ملاحظاته وانطباعاته في كتابه رحلة مارب كوبولو ومما جاء في مذكراته "أنه قضى خمسة أشهر على ساحل سومطرة الشمالي في سنة 1292م فوجد جماعة من المسلمين في مملكة فيرلاك Perlak وأن هذه المملكة غنية بالتوابل والبهارات والأخشاب والمناظر الطبيعية.⁵⁰

اطّلع القائمون على دول البرتغال وأسبانيا وهولندا على مدونات وملاحظات ماركو بولو عن ثراء دول أرخبيل الملايو وكثرة خيراتها الطبيعية، فخططوا للوصول إليها. ولم يمر عام واحد على اكتشاف رأس الرجاء الصالح إلّا وكانت البرتغال قد اتخذت لها قاعدة على الساحل الغربي للهند في غوا (Goa)⁵¹ سنة 1510م وعين الفنسو دي البوكيرك Alfansode albugurgue حاكما عليها ومنها انطلقت إلى ملاقا.⁵²

الهجمة البرتغالية الأولى على ملاقا

أرسل الفنسو دي البوكيرك من جوا Goa قواته البحرية بقيادة الأدميرال البحري "ديجو لوبيز دي سكوير Diego Lopizde Segueira" لتقصي الحقائق عن أهمية هذا الميناء الملايوي الإسلامي من الناحية التجارية، ومدى تمسك الملاقيين بالوحدة

48 محمود شاكر، العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص143.

49 Sejarah Masuk dan Berkembanganya Islam di Indonesia, Cetakan Ke tiga 1993, p.205.

50 توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وزملاؤه (مصر: النهضة المصرية، 1971م) ص405.

51 ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية (مصر: النهضة المصرية، 1972م) ص29.

52 للعلم فانه قبل أن يصل البرتغاليون إلى ملاقا، كانوا قد سيطروا على موانئ دول الخليج العربي مثل عمان، والكويت، والبحرين، ووصلوا أيضا إلى جدة Jeddah ليروا مدى قوتها القتالية واستعدادها للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

وجنسيات التجار في ذلك الميناء، فقدم دي سكويرا تقديراً مفصلاً عن أوضاع البلاد الداخلية ولم يقتنع الفنسو دي بوكيرك بالتقرير الذي قدمه دي سكويرا فأرسل قوة بحرية برتغالية أخرى بقيادة القبطان "غو نكالو باريرا Gongala Pereira لكن هذا الهجوم الشرس من قبل البرتغاليين قد فشل بفضل صلابه الملاقيين ووقوف التجار المسلمين بجانب إخوانهم الملايويين، والقوة العسكرية البحرية، وخضوع الإمارات (السلطنات) لأوامر العاصمة المركزية وصلابة القاعدة الشعبية، ومع بداية سنة 1511م أصيبت البلاد بالضعف ونُخر فيها السوس بسبب التنافس بين التجار المتواجدين فيها في سبيل الحصول على أكبر نصيب من الصفقة التجارية مما أدى إلى خلل أمني واقتصادي، والنقطة الثانية انفصال بعض الولايات الخاضعة لملاقا المركزية، وتساعد حدة التنافس بين ولاه الأمور والقواد العسكريين مثل هانج تواه Hang Tuah وهانج جييات Hang Jebat.⁵³

الهجمة القاتلة

بعد الهجومين الأولى والثانية على هذا المركز التجاري العالمي والقلعة الإسلامية، لم تسترح قلوب البرتغاليين - بعد سيطرتهم على الأندلس - إلا باستيلائهم على عالم الملايو، وشاء القدر أن تسقط منارة الإسلام بملاقا تحت سيطرة التجار والدعاة النصراري في الهجمة الثالثة بقيادة الحاكم العام في جوا الأدميرال البرتغالي "الفنسو دي بوكيرك" (أبو الفرق)⁵⁴ وقبل توجهه إلى ملاقا ألقى خطبة نارية تنم عن الحقد والكراهية المبيتان ضد مسلمي ملاقا خاصة ومسلمي العالم عامة، ومما جاء في خطبته "الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب، عندما نظرد المسلمين من هذه البلاد. ونحمد نار هذه الطائفة المحمدية⁵⁵ حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً، فإذا استطعنا الوصول إليها فسيترك المسلمون الهند⁵⁶ كلها لنا. إن غالبية المسلمين يعيشون

53 الملايو وصف وانطباعات، مرجع سابق، ص 85-87، وانظر أيضاً: محمود شاكر، العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 144، وماليزيا بين الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص 51.

54 السيد علوي بن طاهر الحداد، المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى (جدة: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 1985م) ص 904.

55 أطلق الغرب على المسلمين اسم "المحمدين" أي أتباع ديانة محمد ﷺ، قياساً على المسيحية المنسوبة إلى السيد المسيح عليه السلام.

56 يقصد بالهند في تاريخنا الإسلامي كل من: الهند وباكستان وبنجلاديش، وقد حكم الهند أمراء المغول المسلمين.

على تجارة هذه البلاد، ولقد اغتتوا وأصبحوا أصحاب ثروات ضخمة، وملاقا هي مركزهم، فهاهم ينقلون كل عام التوابل والأدوية إلى بلادهم دون أن نستطيع منعهم، فإذا تمكنا من حرمانهم من هذه السوق القديمة، لا يبقى لهم ميناء واحد ومحطة واحدة مناسبة في كل هذه المنطقة ليستمروا في تجارتهم، وأؤكد لكم أنه إذا أستطعنا تخليص ملاقا من أيديهم فستنتهار القاهرة وبعدها مكة نهائياً. وعلى البندقية بعد ذلك أن ترسل تجارتها إلى البرتغال إذا أرادت شراء التوابل. 57

وإذا تفحصنا خطبة الفنسو دي البوكيرك فإننا نستطيع أن نستخلص منها النقاط الآتية:

- 1 - كانت الحرب حرباً دينية، وهي كذلك امتداد طبيعي للحروب الصليبية التي حدثت في الشرق العربي الإسلامي وهي امتداد للحروب الدينية في الإندلس.
- 2 - محاولة طرد أهالي البلاد والتجار المسلمين من الموانئ التجارية العالمية؛ ومن ثم السيطرة على جميع الهند.

3 - محاولة البرتغال السيطرة على تجارة التوابل والأدوية والعقاقير التي كانت تأتي من ملاقا وهي التجارة الراجحة التي كانت تسيطر عليها أيادي مسلمة.

4 - الإجهاض على مملكة "ملاقا" والقضاء على قوتها الإسلامية الحاكمة فيها فإذا سقطت هذه القلعة الدينية ومنارة الحضارة الإنسانية بعالم الملايو، عنده سوف تستسلم القاهرة للبرتغاليين وتنتهار مكة نهائياً للغرب المسيحي، دعنا نتساءل ما العلاقة بين ملاقا والقاهرة ومكة حرسها الله من كيد الأعداء والمعتدين؟

الإجابة عن ذلك: إن ملاقا كانت قاعدة تجارية عالمية حيثذاك في عالم الملايو؛ حيث كانت تمتد العالم بالمواد التجارية والعقاقير الطبية والأدوية العشبية، أما القاهرة فإنها مركز ومنارة العلم والثقافة الإسلامية في الشرق العربي والعالم الإسلامي، حيث الأزهر الشريف وعلمائوه الأجلاء الذين يثرون روح الحماسة الدينية، ومكة المحروسة فإنها مكان مقدس لدى مسلمي العالم، وجاء البرتغاليون بمساندة دول الغرب المسيحي للإجهاض على القاعدة الاقتصادية في العالم الإسلامي وقتذاك. فإذا رضخت القوة الاقتصادية للمحتل فإن الحركة العلمية والتقدم الحضاري تأخذ في الانحسار، فيقلّ بعد ذلك زوار وحجاج وعمار بيت الله الحرام. فإذا اختلت إحدى هذه

وكان أول ما عملوه بعد استيلائهم على مدينة ملاقا العتيقة أن بنوا حصناً كبيراً سُمّي "آفاموسا A. Famusa" بحجارة انتزعوها من قبور المسلمين فأثاروا بذلك غضب جميع المسلمين، ثم أقدموا على إعدام دفعات متتالية من الأهالي. وسلبوا أموال سكانها من الذهب والأحجار الثمينة والحرير والعطور والعود. وحرقوا ثم سرقوا التراث الملايوي القديم، من كتب وآلات فنون شعبية.

جعل البرتغاليون أرخبيل الملايو كله ميداناً لصراعهم مع المسلمين والتجارة الإسلامية، وصاحب هجماتهم الحرية نشاط تنصيري مسيحي مركز وبدأ الغزو الفكري يأخذ طريقه إلى التسرب بين المجتمعات الإسلامية في ملايا، ومنطقة جنوب شرق آسيا. 64

ما موقف المسلمون في ملاقا وقتذاك؟ أعلن المجاهدون في ملاقا جهادهم الديني، فحاضوا معارك كثيرة منها معركة باغوه Paguh نهاية 1511م، 1512م، 1519م، 1920م ومعركة قوات علاء الدين شاه الثاني 1551م ومعركة تانينج 1586م. 65 وتحدث المصادر التاريخية عن مشاركة متطوعين من الأتراك والمصريين في بعض المعارك الحربية. 66

وعندما غابت شمس ملاقا ظهرت في جزر أرخبيل الملايو دولة جديدة: هي دولة أتشيه الإسلامية (Acheh Islamic State). 67 وقد استمرت هذه الحكومة الإسلامية مائة عام تقريباً 1507-1607م ومن أهم ملوكها "السلطان مفايات شاه 1507م والسلطان إسكندر مودا مهكوتا عالم 1607م، وخلال مدة حكم هذه المملكة الملايوية الإسلامية سطع فيها أجلاء من العلماء أمثال الشيخ حمزة الفنصوري 1610م والشيخ نور الدين الرانيري 1634م والشيخ عبد الرؤوف السنكلي 1620م والشيخ إبراهيم الشامي 1623م والشيخ محمد اليماني المكي 1629م والشيخ شمس الدين السومطراتي 1630م. 68 وقد أدت أتشيه دورها الإسلامي والثقافي واللغوي وكذلك

64 لم ينجح الغزو الفكري تماماً إلا بعد احتلال بريطانيا ملايا وهولندا إندونيسيا وأول مظاهر هذا التغريب والغزو الفكري تغيير الكتابة الملايوية التي كانت تستعمل الحروف العربية إلى أبجدية رومية ثم أعقبها إنشاء المدارس الإنجليزية الخصوصية.

65 مسلمو ماليزيا بين الماضي والحاضر، مصدر سابق، ص 70.

66 الإسلام في الشرق الأقصى وصوله وانتشاره وواقعه، مصدر سابق، ص 135.

67 Sejarah Umat Islam، مرجع سابق، ص 488-575.

68 محمد ضياء شهاب مع عبد الله بن نوح، الإسلام في إندونيسيا (السعودية: الدار السعودية للنشر والتوزيع،

1969م)، ص 20.

التجاري على أفضل وجه لصالح الإسلام والمسلمين ومن أهم إنجازات هذه الدولة: تطبيق الأحكام الشرعية وإزالة الآثار الوثنية الهندوسية، ومواجهة الهجمات البرتغالية على أراضي الملايو، وتوحيد الولايات الملايوية في جزيرة سومطرة. وقد اشتهرت أتشيته حتى أطلق عليها اسم عتبة الديار المقدسة⁶⁹ (بهو مكة المكرمة) Serambi Makkah للأسباب الآتية: أولاً: موقعها الجغرافي على مفترق طرق التجارة الإسلامية الذي كان سبباً في جعلها مركزاً مهماً للدراسات الإسلامية، ثانياً: الالتزام المخلص بمحدود الإسلام، ثالثاً: كانت بمثابة محطة لكل الحجاج الملايويين القاصدين بيت الله الحرام.⁷⁰

الهجمة الهولندية على ملاقا

كان أول اتصال بين أمستردام (عاصمة هولندا) وأرخييل الملايو بعد وصول أربع سفن تجارية هولندية إلى كل من سومطرة وجاوا سنة 1592م، بعد مرورها على جوا Goa وملاقا Malacca وكان سبب مجئ هولندا إلى سومطرة وجاوا ليس لاكتشافها والحصول على المراكز التجارية فحسب، بل لإلقاء نظرة على إمارة أتشيته الإسلامية وإمارة ديماق Demak بجزيرة جاوا للتعرف على مدى قوتها التجارية والعسكرية والعلمية. اصطدمت السفن الهولندية بالمسلمين والبرتغاليين الذين كانوا يحتلون ملاقا في ذلك الوقت. وفي سنة 1602م تأسست في هولندا شركة تجارية تسمى "الشركة الهولندية الشرقية: Vandish Oostindish Compagnie V.O.C على غرار الشركة الهندية البريطانية East India Company E.I.C التي كانت قد تأسست سنة 1599م إلا أن الشركة الهولندية الشرقية كانت أقوى نفوذاً وأكثر مالاً وأحسن تنظيمًا من الشركة الهندية البريطانية، وفي الوقت نفسه وجدت الشركة الهولندية الشرقية فرصة مناسبة لتوسيع نشاطها مستغلة انشغال حكومة لندن في حروبها ضد الأسبان آنذاك. اتجهت حكومة أمستردام إلى تنمية تجارتها بجزر أرخييل الملايو وجزر الهند الشرقية (إندونيسيا). وذلك لفشلها في السيطرة على تجارة شبه القارة الهندية بسبب المنافسة الفرنسية⁷¹ والبريطانية، ثم احتدم التنافس بين هولندا وبريطانيا على أرخييل الملايو،

69 انظر: الإسلام في الشرق الأقصى وصوله وانتشاره وواقعه، ص111.

70 المصدر السابق، ص112.

71 كان نصيب فرنسا احتلال لاوس وكمبوديا وفيتنام. واحتلت بريطانيا الهند سنة 1857م، وسري لانكا ومالديف وبورما، وبعد ذلك ملايا وسنغافورة وسراواك (Sarawak) وصباح (Sabah) وبروني دار السلام.

ونتيجة لذلك ألغت الحكومة الهولندية كل رحلاتها التجارية إلى أرخبيل الملايو وبدأت الإعداد لخطة عسكرية للاستيلاء على ملاقا Malacca وانتزاعها من أيدي البرتغاليين.⁷² ففي 14 يناير سنة 1641م وفي الساعة العاشرة صباحاً، استطاعت قوات هولندا البحرية السيطرة على مدينة ملاقا كلية، وأعلن الحاكم البرتغالي أنذاك عمانويل دي شوزي (Manuel de Sause) استسلام البرتغال للهولنديين بعد حصار دام خمسة عشر شهراً، ثم استولوا على نانينج Naning في بنجري سميلان Negri Sembelan وكوالا سلانجور Kuala Selangor بسلانجور دار الإحسان، الميناء التجاري المهم في ذلك الوقت، امتدت فترة احتلال هولندا لملاقا حوالي مائة وثمانين وأربعين سنة ثم تنازلت عنها لبريطانيا نهائياً طبقاً للاتفاقية التي وقّعت بين البلدين سنة 1824م، وكانت مهمة الشركة الهولندية الشرقية V.O.C الكشف عن القصدير والمواد الطبيعية الأخرى مثل الذهب والحديد والأرز والمواد الخفيفة واستغلالها استغلالاً تجارياً عالمياً، بقدر اهتمامها بنشر المسيحية وتغريب البلاد، وعلى الرغم من ذلك تركت حكومة أمستردام بصماتها الاستشرافية بملاقا (ملايا فيما بعد) وعندما احتلت بريطانيا ملايا (ملاقا سابقاً) اتبعت سياسة تغريب البلاد وغزوها ثقافياً وتعليمياً وذلك باستبدال الكتابة الملايوية الجاوية بالأحرف اللاتينية وأثناء احتلال هولندا للمنطقة قامت ثورات شعبية جهادية مثل: ثورة 1675م، وثورة 50 برئاسة راجا حاج علي،⁷³ وثورة 1784م برئاسة السلطان إبراهيم الثاني 1778-1790م واندلعت هذه الثورة الوطنية في كوالا سلنجور وفي هذه المعركة الحربية انتصر المسلمون في هذه الموقعة ولكن هذا الانتصار لم يكن له معنى لأن القوات الهولندية كانت قد أحكمت سيطرتها على الاقتصاد والشؤون الداخلية والخارجية، ولم يخل يوم واحد من حركة عصيان ضد القوات الأجنبية. وكان من سياسة هولندا المراوغة إعطاء المواعيد المعسولة مما أسكر عقول بعض سلاطين الملايو وكبار رجالات الدولة حينذاك، والشعب مغلوب على أمره.

⁷² في طلب التوابل، مرجع سابق، ص 347، وانظر أيضاً:

Ismail Hadi: Sejarah Malaysia, Penerbit Fjar Bakti S.B, P. Jaya, 1987, pp. 20-22.

⁷³ راج حاج علي: ينتمي إلى أسرة مملكة رياو Riaug الخاضعة لجمهورية إندونيسيا الآن، وقد تولى هذا السلطان إمارة "جوهور رياو".

السيطرة البريطانية

تنازلت هولندا عن ملاقا (ملايا فيما بعد) لبريطانيا مقابل إعطاء بريطانيا هولندا "بانكولين" Ban Kulen بسومطرة.⁷⁴ الغنية بالقصدير والمعادن والتوابل، ومن ثم فإن احتلال بريطانيا لملاقا (ملايا) ما هو إلا امتداد للغزو الفكري الصليبي لعالم الملايو وتكملة للسياسة التي بدأتها البرتغال وهولندا، إلا أن بريطانيا اتبعت سياسة جس النبض والعمل بتوعدة في مشروع استعماري طويل المدى، ففي سنة 1876م اشترت بريطانيا جزيرة بينانج Pulau Pinang بواسطة عميلها "فرانسيس لايت Francis Linght من سلطنة قدح Kedah بقيمة 15.555 رنجيت وأسست فيها شركة تجارية بريطانية أسمتها "شركة بينانج البريطانية Pinang British Company. ثم قام فرانسيس لايت بجلب عمال من الصين والهند لتطوير الصناعات وحفر مناجم القصدير بالجزيرة.

تشير الوثائق التاريخية أن سلطنة قدح (الواقعة بين بينانج وبرليس Perlis) كانت تخضع سياسياً لحكومة سيام إذ تقدم إتاحة في السنة مرتين على شكل ورده ذهبية Golden Flower، وفي الوقت نفسه تقدم أيضاً كل من: ترنجانو (Terengganu) وكلنتن (Kelantan) وفطاني (Patani). فما معنى هذه الإتاحة؟ لا شك أنها دليل الخضوع وأن السلطنة غدت رهن إشارة أيادي حكومة سيام. ولم تلغ هذه الإتاحة إلا بعد سنة 1909 بعد أن ضمت بريطانيا قدح، وكلنتن، وترنجانو إلى فيدرالية ملايا البريطانية⁷⁵ واعترفت بريطانيا بالوجود السيامي رسمياً في الولايات الملايوية بجنوب تايلاند والتي تعرف بـ "دولة ملايو فطاني Patani Malay Sultanate".

إن تسليم سلطنة قدح جزيرة فينانج لبريطانيا ما هي إلا مراوغة وحيلة وخيانة من قبل حكومة سيام مقابل اعتراف بريطانيا لها بالسيطرة على الولايات الملايوية الفطانية.⁷⁶ وكانت المرحلة الثانية لحكومة بريطانيا مسعاها التقرب إلى حكام سنغافوره

⁷⁴ جزيرة في جمهورية إندونيسيا، يفصل بينها وماليزيا مضيق ملاقا (شلاهيظ ملاقا) كما ورد في كتب الرحلات الإسلامية. راجع: جورج فاصلو حوراني، العرب والملاح في المحيط الهندي، ترجمة د. يعقوب بكر (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1958)، ص 213.

⁷⁵ قبل انضمام قدح وكلنتن وترنجانو، كانت فيدرالية ملايا تضم بيراك (Perak) ونجري سميلان (Negri Sembilan) وسلانجور (Selangor)، وباهانج (Pahang).

⁷⁶ تتكون الولايات الملايوية الفطانية من كل من: فطاني (Patani) وجالا (Yala)، منارا (Naratiwat)، ساتول (Satul) وجزء كبير من ولاية سنغورا (Songla).

Singapor⁷⁷ ففي سنة 1819م قدم وفد بريطاني برئاسة السير ستان فور رافليز Stan Ford Raffles واستطاع بحيلته ووعوده المعسولة أن يستأجر الجزيرة وتعد المعاهدة مع السلطان حسين شاه الحاكم من قبل سلطنة جوهور علماً أن الجزيرة جزء لا يتجزأ من جوهور دار التعظيم. ومن أهم نصوص هذه المعاهدة:

- 1 - أن تدفع بريطانيا للسلطان حسين شاه راتباً شهرياً قدره 10.000 رنجيت مدة حياته. ولوكيله "تيماكونج Temangong" راتباً آخر قدره 5.000 رنجيت.
- 2 - ألاّ تتدخل بريطانيا في شؤون سنغافورة الداخلية وهذا يتنافى مع حقيقة سياسة بريطانيا، فقد تدخلت في شؤون الجزيرة داخلياً وخارجياً، بأن جلبت أناساً غرباء عن البلاد (الصينيون والهنود) وتعاونت مع هؤلاء في سبيل إسقاط الهوية الملايوية الإسلامية عن تلك الجزيرة.⁷⁸ كما نرى اليوم.
- 3 - لبريطانيا أن تطور المدينة وتبني قواتها العسكرية فيها وفي أواخر القرن التاسع عشر أصبحت هي القوة الضاغطة على السلطنات الملايوية خاصة وعلى المستعمرات البريطانية في هذا الجزء من العالم.

وفي سبيل الإجهاض على الهوية الإسلامية للجزيرة اتبعت بريطانيا، مختلف الأساليب لتحقيق أغراضها مثل: تهديد السلطان بقطع الامتيازات الممنوحة له، والمراوغة والوعود المعسولة التي كانت تعد بها بريطانيا السلطان، واستعراض عضلات القوات البريطانية بالمنطقة، كل هذا جعل السلطان حسين شاه ومن شاكلة من سلاطين الملايو يلجأون إلى طلب المساعدة من المقيم البريطاني حينذاك. وفي سنة 1824م سوت بريطانيا وهولندا خلافتهما بأن عقدت معاهدة بين الدولتين British-Dutch Treaty وكان من أهم نصوصها:

- 1 - رفعت بريطانيا وشركتها: E.I.C أيديها عن جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) لأنها كانت تحتل جاكرتا وبانكولين بسومطرة، واعترفت بالسيادة الهولندية عليها.

⁷⁷ وكانت تسمى بأوجونغ تانه (Ujong Tanah)، أي مؤخرة أرض الملايو أو ذيل أرض الملايو، وبعدها سميت بـ تماسيك (Temasik).

⁷⁸ في الحقيقة أن انتزاع الجزيرة من أيدي السلطات الملايوية الإسلامية بدأت منذ سنة 1819م وليست في عهد حكومة المرحوم "نانكو عبد الرحمن فزا الحاج" الذي وافق على أن تفصل سنغافورة عن دولة ماليزيا سنة 1965م. وفي حينه أعلن (لي كوان يو) أول رئيس وزراء دولة مستقلة لها كيانها السياسي والاقتصادي والاجتماعي. واعترفت دول العالم بها. راجع المصدر السابق: اتحاد ماليزيا، ص 40-41.

2 - ابتعاد هولندا عن مضيق ملاقا وعن جزيرة سنغافورة.

3 - عدم تدخل هولندا في شؤون شبه جزيرة الملايو بتاتا أو الاتصال بسلاطينها.

وفي سنة 1826م وحدت بريطانيا جزيرة بينانج Pinang وملاقا Malacca وسنغافورة Singapore ووضعتها تحت إدارة استعمارية محكمة وأسمتها "مستوطنات المضائق البريطانية" (British Strait Settlements) وتدار هذه المستعمرات من قبل حكومة الهند البريطانية في نيودلهي⁷⁹ New Delhi .. وفي سنة 1867م سلمت هذه الحكومة إدارتها إلى وزارة المستعمرات البريطانية في لندن British Colonies Ministry.

بريطانيا وحكومات الملايو

لم تتدخل الشركة الهندية الشرقية East India Company ولا الحكومات المتعاقبة البريطانية في شؤون حكومات الملايو خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي ثم في سنة 1873م تغيرت السياسة البريطانية بأن بدأت باحتلال شامل لكل بلاد الملايو.⁸⁰ وخاصة بعد أن عُيِّن السياسي البريطاني السير أندرو كلارك Sir Androw clarke. حاكماً على سنغافورة، وأن تكون له السلطة التنفيذية لاحتلال بريطانيا للملايا Malaya⁸¹ وعقد المعاهدات مع سلاطينها ففي حينه اتخذ السياسي البريطاني إجراءاته اللازمة لاحتلال الملايو.

ففي 15 يناير سنة 1874م عقد السير أندرو كلارك باسم حكومة بريطانيا معاهدة حماية مع السلطان عبد الله (سلطان بيرك دار الرضوان) والمعروف بمعاهدة بانكور Pang Kor Treaty، ولم يكن من السهل أن تتدخل بريطانيا - أو أية دولة أجنبية - في شؤون بيرك الداخلية لولا وجود خلافات بين الأسر الحاكمة ومنازعات بين القبائل وتصعد جدران الدولة نتيجة سوء تدبير أمورها من قبل الحكام؛ ففي بيرك Perak

⁷⁹ وهي معرفة من كلمة (دهلي Deh Li) العاصمة الإسلامية في عهد الحكم المغولي، وقد حرقها بريطانيا من دهلي إلى دهلي (نيودلهي) حتى لا تذكر الأجيال القادمة دور دهلي (الديني والحضاري والعلمي) في شبه القارة الهندية قبل السيطرة الأوروبية عليها.

⁸⁰ تضم ملايا كل من "قذح Kedah، برليس Perlis، بيرك Kedah، كلنتان Kelantan، ترينغانو Terangganu، باهج Pahang، ملاقا Malacca، جوهور Johor، نجري سميلان Negri Sembilan، سلاغور Selangor، ولاية برسكوتان W. Persekutuan، بينانج Penang.

⁸¹ المصدر السابق (الاستعمار في جنوب شرق آسيا): ص 145-146م، راجع أيضا: J. David day, Malaysia, gomston of S.E.Asia, Tropeka press sdn. Bhd. K.lumpur. p. 13-15.

دار الرضوان⁸² كان هناك خلاف بين السلطان عبد الله (حاكم السلطنة) والراجا يوسف الذي أراد التعاون مع السلطات البريطانية. في بداية الأمر أيدت بريطانيا السلطان عبد الله وبعبارة أخرى وقفت بريطانيا بجانب السلطان عبد الله في مواجهة أخيه الراجا يوسف، حيث رأت بريطانيا أن شعب بيراك والملايويين وقفوا جميعاً مع السلطان عبد الله لعدم موافقته على نظام الحماية البريطانية وعدم مساييرته للسياسات الأجنبية، ففي حينه أيدت بريطانيا بكل خبثها وقواها الراجا يوسف، لميوله وتعاونه مع سياسة الأخطبوط البريطاني فنفت بريطانيا السلطان عبد الله إلى جزيرة شيشل She Sheal في وسط المحيط الهندي وقد كانت مستعمرة بريطانية.

وإذا أردنا أن نعرف لِمَ نَفَتْهُ السلطات البريطانية وعَيَّنَت الراجا يوسف حاكماً على سلطنة بيراك؟ فإن ذلك يرجع إلى الأسباب الآتية:

- 1 - السلطان عبد الله أَكْرَهَ على توقيع إتفاقية بانكور Pangkor سنة 1847 مع بريطانيا وبموجب هذه الاتفاقية احتلت بريطانيا البلاد.
- 2 - سلبت بريطانيا جميع سلطات السلطنة الداخلية والخارجية فأصبح سلطانا بلون سلطات.
- 3 - تدفع الضرائب عن طريق المقيم البريطاني.
- 4 - وجود السلطان عبد الله في البلاد يؤدي إلى حدة التوتر بين الملايويين والبريطانيين المحتلين.
- 5 - لأن السلطان عبد الله كان يقاوم سياسة بريطانيا في سلطنته.

تلك هي العوامل والدوافع التي دفعت بريطانيا لنفي هذا السلطان⁸³ إلى جزيرة بالمحيط الهند حتى لا يتعاون مع أهالي بيراك في إشعال نار الجهاد والثورة الوطنية وعلى الرغم من ذلك حدثت في البلاد حادثة بارزة، عندما قتل الملايويون المقيم البريطاني الأول (J.W.Birch) في باسير سالا Pasir Salak بعد شهور من تعيينه حاكماً بريطانيا في بيراك. وبعد مقتل هذا البريطاني أرسلت السلطات البريطانية المتمركزة في سنغافورة قوات بحرية قادمة من هونج كونج Hong Kong، والهند وفيتنام وسنغافورة. والسؤال: لماذا توافدت كل هذه القوات البريطانية؟ لقد كان

⁸² بيراك دار الرضوان، سلطنة ملايوية في ماليزيا عاصمتها: إيبو Ipoh: وهي غنية بمعادن القصدير وزراعة المطاط، وتغطي هذه البلاد غابات كثيفة.

⁸³ نفت حكومة بريطانيا السيد أحمد عرابي زعيم الثورة العرابية بمصر إلى جزيرة سيلان (سري لانكا) ونفت هولندا الشيخ يوسف من مكاسار (إندونيسيا) إلى جنوب إفريقيا لوقوفهما ضد سياسة الاحتلال.

ذلك استعراضا لعضلات القوة البريطانية أمام السلاطين الملايوين وأهالي البلاد المغلوبين على أمرهم. والتاريخ يعيد نفسه، فقد تنادت القوات الغربية المسيحية وتجمعت لمحاربة المسلمين في مناسبات عدة، بل وجدوا من يعينهم من المسلمين.

وبعد أن أحكمت بريطانيا سيطرتها على بيراك، شرعت في السيطرة على نجري سميلان Negri Sembilan⁸⁴ لأنها مفككة الأوصال وغير موحدة ولوجود القصد فيها. وكانت الجولة الثالثة احتلال سلانجور "Selangor" لادعاء بريطانيا أن ابن السلطان عبد الصمد (السلطان في ذلك الوقت) أغار هو وبعض مساعديه على بعض وحدات القوة البريطانية في ملاقا وسنغافورة وتحت ذريعة هذا الادعاء جهزت بريطانيا قواتها من سنغافورة بقيادة الكابتن "شادويل Shadweel" فاحتلت كوالا سلانجور Kuala Selangor الميناء التجاري في البلاد، والجولة الرابعة وهي احتلال باهانج Pahang بأن اتهمت بريطانيا السلطان وان أحمد "سلطان باهانج" بأن له دوراً في قتل واختفاء جثة البريطاني المقتول خارج قصر السلطان.⁸⁵

ولم تنته سنة 1895م حتى استطاعت بريطانيا أن توحد السلطنات الملايوية (بلاد الملايو) تحت حكومة موحدة تحت راية بريطانيا العظمى والتي نصطلح عليها: Malay Federation State وكان يرأس هذه الحكومة المصطنعة مندوب سامي بريطاني مقيم في كوالالمبور Kuala Lumpur (السير فرانك سويتهم Sir Frank Switheam، أما جوهر Johor دار التعظيم فقد قبلت بالحماية البريطانية سنة 1858م ثم جددت سنة 1914م وبموجب هذه المعاهدة اعترفت جوهور بوجود مستشار بريطاني عام 1846م ثم أصبحت جزيرة لابوان Labuan الفيدرالية بسرراوك مستعمرة بريطانية بعد أن ضمتها إلى سلطان بروني دار السلام، ثم صارت من مستعمرات المضائق البريطانية سنة 1866م.

وفي سنة 1841م تنازل سلطان بروني عن ولاية سرراوك نهائياً وسلمها لمغامر بريطاني يدعى جيمس بروك Jeams Brock، ومع مطلع سنة 1862م تأسست شركة بريطانية في بورنيو باسم شركة بورنيو الشمالية البريطانية التجارية "British North Burnew Company" وحصلت على جميع التسهيلات والامتيازات التجارية من

⁸⁴ سميلان (معناها تسعة) نجري سميلان أي بلد تسع ولايات سونجي أوجونج SungaiUjang، وتيراشي Terachi، وإيناس Inas، ورامبو Rambau، وجي ليو Jelebu، جوهر Johol، سري متاني Seri Menanti، تامبين Tampin و نانج Nang.

⁸⁵ C. North Cate Par Kison: Buluh in Tenvenation in Malaya 1960-1877, Singapore: University of Malaya press, 1960, pp. 12-15.

سلطان بروني: السلطان هاشم، وأخيراً سيطرت حكومة لندن على جزيرة بورينو الشمالية المشتملة على الولايات الآتية: بروناي دار السلام، سراواك، وصباح. 86
أثناء وجود بريطانيا في ملايا قامت عدة حركات جهادية مضادة للسيطرة الأجنبية ففي بيراك اندلعت مثلاً ثورة أهالي باسير سالك Pasir Salak سنة 1885م، وقتل في هذه المعركة المقيم البريطاني J.W. Birsh في نجري سميلان، وثورة السيد دول سعيد Dol Said سنة 1881م، وفي سلاينجور قامت ثورة ما بين عامي 1870-1875م، وفي باهانج ثورة توك باهامان 1891-1895م، وفي كلنتن ثورة تؤ جنغوت Tok Janggut سنة 1915م، وفي ترينجانو ثورة الشيخ عبد الرحمن ليمونج سنة 1928م، وفي قدح ثورة السلطان أحمد تاج الدين. 87

لماذا أسرع بريطانيا إلى احتلال بلاد ملايا؟

بدأت بريطانيا في التدخل في شؤون بلاد ملايا بشكل سافر بداية من سنة 1847م لتصل إلى احتلالها كلية، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، أهمها:

1 - في سنة 1869م افتتحت قناة السويس وبذلك تضاعفت حركة الملاحة البحرية العالمية والتجارة مع بلدان الشرق الأقصى. ونشطت التجارة البريطانية في كل المناطق الواقعة على ذلك الطريق التجاري.

2 - وفي سنة 1871م بدأت ألمانيا بمنافسة دول الاستعمار بما فيها بريطانيا في حقل التجارة.

3 - نشطت هولندا في إكمال سيطرتها على جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) مما أثار اهتمام بريطانيا ودفع بها إلى احتلال بلاد ملايا مخافة أن تستولي عليها هولندا أو ألمانيا.

4 - تجدد النشاط الفرنسي في تلك النواحي خاصة بعد أن تولى نابليون الثالث أمور فرنسا سنة 1852م، وقد باشرت فرنسا بفرض نفوذ الحماية على كامبوديا ولاوس وفيتنام سنة 1863م.

5 - ازدياد الطلب العالمي على معدن القصدير المستخرج من مناجم بلاد ملايا.

86 اتحاد ماليزيا، مرجع سابق، ص 4-14، وانظر أيضاً: مسلمو ماليزيا بين الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص 62، وكذلك: الاستعمار في جنوب شرق آسيا، ص 204-205.

87 علماً أن كلنتان Kelantan، قدح Kedah، ترينجانو Trenggano. ضمتها بريطانيا لاتحاد الملايو سنة 1909م بعد اتفاقية بانكوك Bangkok Treaty بين بريطانيا وسيام.